البحيرة

لألفونس دي لامرتين

نظم لامرتين هذه القصيدة بعد وفاة حبيبته جوليا التي خلد ذكراها في روايته المسماة « رافائيل » وهي من درر قصائده . وقد نزلت من قلوب القراء منزلها في قلب ناظمها نفسه . فلعنت مراراً واستدرت الدموع تكراراً عندما ناحت بها اوتار الثاني ، ولا غرو فالطبيعة اشد اساساً واعظم شاعرية من الخيال ، لان الشاعر الاكبر كما يقول لامرتين هي الطبيعة لا الانسان . وهذه ترجمة تكاد تكون حرفية لها

هكذا ، نحن دائماً مدفوعون الى شواطىء جديدة ، يذهب بنا الليل الابدي ، بلا عَوْد ولا رَجْعَة ، فهل لا يتسنى لنا يوماً ما ، ان نُلقي بمرساتنا في بحر الحياة ؟

ايتها البحيرة ! ما كاد العام يلفظ أنفاسَهُ ، حتى عُدْتُ وحيداً اليك ، فانظري ، بالقرب من امواجك المحبوبة ، التي كان يجب ان تراها ثانيةً ، اجلس منفرداً على هذه الصخرة ، التي ابصرتها تَعْتَمِدُ عليها

لقد كنت تُهدرين هكذا تحت هذه الصخور العميقة ، وكنت تتكسرين على جُنُوبها المزقة ، كما تفعلين الآن ، وكان الريحُ تُلقي بزَبَد امواجكِ على قدميها المعبودتين ، كما هي الحال في هذه البرهة

أتتذكرين عشيّةَ كنا سائرين على صفحاتك الهادئة ، ونحن صموت ، ولا يُسمع في الأفق ، على الماء ، وتحت السماء ، سوى حركة المجذفين ، الذين يضربون بوزن متناسق ، لُجَجَكِ الشجية

فارتفعت فجأة الفاظ ، لا عهد للارض بها ، فردّد الساحل المأخوذ بسحرها ، صداها المطرب ، فاهتز الامواج ، وأنشأ ذلك الصوت العزيز لديّ يُلقي هذه الكلمات :

« ايها الزمن ، قِفْ عن طيرانك ؛ وانتِ ايتها الساعات المهانة لهنائنا ، إنقطعي عن سيرك ، ودعينا نتذوّق لذائذ اسعد ايامنا ، السريعة الزوال »

كثير من الناعسين في هذه الحياة ، ينزعون اليك أيها الزمن ، قسراً ، يسرّ لاجلهم ، واصرم بالصرام ايامهم ، حبل شقائهم الذي يُنهش انشدّتهم ، وأنس السعداء

ولكني عبثاً ألتمسُ ، فالزمان ضنينٌ بهنيهات وجيزة ، والوقت يفلت مني ويهرب فابتهلتُ الى الليل ان يتمهّلَ ، ولكن الفجرَ ما عتّمَ ان بدّد غياهب الظلام

فلنتحابَّ اذن ، لنتحاب سراعاً ؛ ولننعم على عجل ، بالساعة المولّية ، فليس للانسان في حياته مرفأٌ يرسو فيه ، ولا للوقت ساحل يلجأ اليه ، فالزمن يسري بنا ، ونحن نمرُّ مسرعين

ايها الزمن الحسود ، هل في شرعة الانصاف ، ان تمرَّ اوقات الشقوة ، التي يساقينا فيها الحبُّ كؤوس الهناء مترعة ، بنفس السرعة التي تدبر بها ايام الشقاء ؟

والهف نفسي ! أليس بمقدرتنا ان نبقي حتى على أثرها ؟ فهل ولّت الى الابد ؟ وهل ضاعت كاملةً دون امل ولا رجاء ، وهذا الزمن الذي جاد بها ، هو ذاته الذي القاها في غياهب العدم ، ألا يعيدها الينا ثانيةً ؟

ايتها الازلية ، ايها العدَم ، ايها الماضي ، لأنتم هوّات معتمة ، ماذا تفعلون بالايام التي تبتلعونها ؟ تكلموا : هل تردون الينا ذلك الانشغاف الروحي ، وتلك الافتتانات السابية التي تسلبونا اياها ؟

ايتها البحيرة ! أيتها الصخور الصمُّ ! ايتها المغاور ! ايتها الغابة المظلمة ! انتنّ اللاتي يبقى عليكنّ الزمن ، ويتسنى له اعادة زَهْوَ الصبا اليكنّ ؛ احتفظنَ من هذه الليلة ، احتفظي ايتها الطبيعة الجميلة على الاقل بذكراها

أُناشِدكِ الله ايتها البحيرة الجميلة ، ان تردّدي ، سواء كان بسكون مياهكِ وهدوئها ، او باصطخاب امواجك وثورانها ، او بمنظر سواحلكِ النضرة الضاحكة ، او بأشجار الصنوبر السود التي على حوافيكِ ، او بصخوركِ الموحشة ، المعلّقة فوق مياهك . . .

رددّي ، سواء كان بنسيمك المضطرب الساري ، او بدَوِيّ ضفتّيك المنتقل من شاطىء الى آخر ، او بالكوكب ذي الجبهة الشجينية الذي يُنير صفحاتكِ بضيائه الساحرة . . .

رددي ، سواء برياحكِ المنتحبة ، او بزفرات اعشابكِ وورودك ، او بعَبيرك المعطّر فضاءك ، او بكل ما تسمعهُ الأُذُن ، وتراه العين ، ويستنشقهُ الفم ، رددي هذه الكلمة ، التي هي زفرة أتقلب الدامي ، وتحيب الروح الحائر :

لقد تحابّنا ، لقد تحابّنا جورج نيقولاوس